وللفُنُونِ دَوْرٌ في تَنْمِيةِ الذَّكَاءِ العَاطِفِي

مهى قرعان

" كل النتاجات العظيمة هي من صنع أولئك الذين سبقت مشاعرهم تفكيرهم " ..... C . H . Parkhurst .

الدافعية، والتفاؤل مكونات مهمة للذكاء العاطفي. فدون وجود الدافعية والاتصاف بالتفاؤل، يصعب الوصول للأهداف مهما كان مستوى المهارات والإمكانات التي يمتلكها الشخص. ولأننا نؤكد دائماً على ارتباط الذكاء العاطفي بالنجاح على المستويات كافة، ولأن الذكاء العاطفي متعلم ومكتسب بدرجة عالية، علينا كمعلمين العمل على تنمية الذكاء العاطفي لطلبتنا (Goleman, 1997).

وعندما نواجه أو نتصدى لسؤال فيما إذا كان الذكاء العاطفي والذكاء الأكاديمي مرتبطين بصورة طبيعية، علينا أن نتذكر ما يلي: عندما يعمل الدماغ في حالة تكون فيها العواطف مضطربة، لا يمكننا أن نتخذ أي قرار مهما كان بسيطاً. لأنه بسبب الاضطراب، لا يجعلنا جزء الدماغ الذي يتحكم بالعواطف قادرين على معرفة كيف نشعر بشأن الخيارات التي نتخذها (Sperry, 1974).

غير أن الذكاء العاطفي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفنون، فكلاهما مرتبط بعواطفنا ومشاعرنا. فالفنون وسيلة لترجمة مشاعرنا وأحاسيسنا، وطريقة للتعبير عن ذواتنا. والذكاء العاطفي هو المقدرة على إدارة عواطفنا وانفعالاتنا وتسميتها. فهل تساعدنا الفنون في تنمية ذكائنا العاطفي؟

اعتمدت بشكل رئيسي في مقالتي هذه عن علاقة الذكاء العاطفي بالفنون على عناصر الذكاء العاطفي حسب تصنيف جوين دوتي (Doty, 2001). وهذه العناصر هي: الوعي بالذات وبالآخرين، قبول الذات والآخرين، تحمل المسؤولية الشخصية، إيجاد معنى شخصي للتعلم، تقدير الاستقامة والأخلاق.

الفنون والوعي بالذات

يعتبر الوعي بالذات من أهم عناصر الذكاء العاطفي. وتعتبر دوتي الوعي بالذات العنصر الأول من عناصر الذكاء العاطفي، وبدونه يصعب تحقيق العناصر الأخرى. والوعي بالذات من وجهة نظر دوتي يقوم على دمج مفهوم الذات بمعرفة الذات. وتعرف دوتي الذات بأنها منظومة معقدة ومرتبة وديناميكية من المعتقدات والاتجاهات والآراء التي يحملها كل شخص ويعتقد بصحتها حول وجوده. وينتج الوعي بالذات من خلال دمج هذه المعتقدات بنقاط قوة الشخص وحدوده وإمكاناته وقدراته. ويشمل الوعي بالذات جوانب عدة: الوعي الذهني، الأكاديمي، الاجتماعي، الانفعالي.

تساعدنا الفنون على تنمية وعينا بذاتنا من خلال التعبير عن أفكارنا وعواطفنا ومشاعرنا بصورة إيجابية. وتعمل على تنظيمها، وبخاصة عندما تكون لدينا حاجات غير ملباة. فمن خلالها نعبر عن حزننا أو فرحنا أو غضبنا. وعندما تسنح لنا الفرصة للتعبير عن ذواتنا بحرية من خلال الفنون المختلفة كالرسم أو الموسيقى أو التمثيل أو كتابة القصص، نستطيع فهم ذواتنا، ونستعيد حالة الاستقرار الداخلي الضروري لرفع مقدرتنا على التعلم والتفكير.

وتزداد الحاجة للتعبير عن أنفسنا عند حدوث حالة من الاضطراب الداخلي تؤدي إلى اختلال في فهمنا لذواتنا أو وعينا بما يجري حولنا من أحداث خارجة عن نطاق سيطرتنا تعيق مقدرتنا على التكيف والتعلم، وقد تجعل منا أشخاصاً عدوانيين أو منعزلين. وقد تحدث حالة الاضطراب الداخلي نتيجة مرورنا بظروف صادمة؛ كفقدان عزيز، أو التشرد بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعية. وهناك العديد من البرامج العلاجية للأشخاص المضطربين داخليا نتيجة لأسباب مختلفة، وهذه البرامج العلاجية تعتمد أساساً على استخدام الفنون في العلاج. وقد أورد محمد فاضل رضوان عدداً من الأمثلة حول توظيف الفنون في هذا المجال في مقالته بعنوان "الفن والإنسان: الأبعاد الاجتماعية والتربوية للقيم الجمالية" (رضوان، 2007: 10).

وعندما تسنح لنا الفرصة في التعبير عن ذواتنا بحرية من خلال الفنون المختلفة يفتح أمامنا مجال الإبداع. ويتيح لنا الإبداع الإحساس

الإيجابي بذواتنا ويطور شخصياتنا بأبعادها المختلفة الوجدانية والنفسية والذهنية.

الفنون وقبول الذات والآخرين

تعتبر الفنون أيضاً لغة عالمية للتواصل. فالرسم والموسيقى والدراما الصامتة أشكال من الفنون يمكن أن نفهمها دون الحاجة لمعرفة لغة من يقوم بها. كما أن الكثير من الأعمال الأدبية تمت ترجمتها لأكثر من لغة كالقصص والمسرحيات والأشعار. فعلى سبيل المثال، ترجم الأديب المفكر جبرا إبراهيم جبرا معظم أعمال شكسبير إلى العربية. كما ترجمت أعمال الشاعر السوري سعد الله ونّوس إلى الكثير من اللغات العالمية.

فبالإضافة إلى دور الفنون في التعبير عن ذواتنا والوعي بها وفهمها، ومن ثم قبولها، تساعدنا الفنون في توصيل أفكارنا وآرائنا ومشاعرنا وعواطفنا للآخرين بأسلوب ممتع ومثير يمكنهم من فهمها وقبولها. وتتيح لنا أيضاً بدورها الاطلاع على ثقافة الآخرين وآرائهم ومشاعرهم وتقبلها.

إضافة إلى قبول الآخرين والانفتاح على ثقافاتهم وتقبل الاختلافات بيننا وبينهم، فإن التعبير الفني يمكننا من قبول أنفسنا كجزء من مجتمعنا وثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا. فالكثير من الفنون تعبر عن عادات المجتمع وتقاليده وقيمه، كالقصص المتوارثة، والأشعار، والدبكات.

ولقبول الذات والآخرين والتعاطف معهم علاقة كبيرة بعملية التعلم. فعملية التعاطف مع الآخرين، التي هي ميزة للشخص الذي أتقن قبول الذات، لها قيمة أكاديمية إضافة إلى قيمتها في الحياة. ففي اختبار أجري على 1011 من أولئك الأطفال الذين أبدوا قدرة على قراءة المشاعر غير المحكية للآخرين، كان أداؤهم أفضل في المدرسة، على الرغم من أن علاماتهم في امتحانات الذكاء كانت أقل من زملائهم الذين كانوا أقل مهارة منهم في قراءة الرسائل غير المحكية (Nowicki & Duke, 1989).

الفنون تنمي القيم الإيجابية

تعمل الفنون أيضاً على إيجاد الحالة العاطفية التي تساعد على تنمية قيم إيجابية لدينا. من هذه القيم قيمة العمل، والقيم الأخلاقية كالصدق، والأمانة، والبذل، والإخلاص. والقيم الوطنية كحب الوطن والدفاع عنه، إضافة إلى قيم التعاون والعمل الجماعي. ففي الماضي كان الشعراء والقارعون على الطبول يرافقون الجيوش لحثها وتشجيعها على الدفاع عن الوطن، مثل أبو فراس الحمداني في قتال الروم، وعنترة ابن شداد في العصر الجاهلي. كما كانت الأناشيد ترافق الكثير من الأعمال الجماعية لما وجد لها من تأثير عضوي يساعد على بذل الجهد والإنجاز. وما زالت الأغاني والأشعار والرسومات تستخدم لدعم قضايا مختلفة. فلكل جماعة أو بلد أغانيه وأشعاره التي تدعم أفكاره وتعبر عن وجهة نظره.

بالنسبة للتلاميذ، فهم يستمرون في تطوير فهمهم لمشاعرهم، وعواطفهم، ومعتقداتهم وقيمهم. ومع نضجهم، تصبح قضية الأخلاق الشخصية والاستقامة سمة مهمة للذكاء العاطفي. وتعرّف دوتي علم الأخلاقيات بأنه ذلك النظام من الأخلاق الذي يختاره الشخص ليتمسك به. ففي الوقت الذي يدخل فيه التلاميذ الصف الأول، يكون قد مر عليهم ست سنوات تقريباً كونوا خلالها أساسيات تحمل المسؤولية، والاحترام، والتعاون، والاستقامة، والأمانة. ويتكون هذا الإطار الأخلاقي من خلال مراقبتهم لآبائهم وأشقائهم، وكذلك العوامل البيئية كالكبار المؤثرين وأصدقاء اللعب، والإعلام. بينما قد يفتقد الآخرون إلى الفهم الضروري للقيم المناسبة والمهارات الجيدة، وقد يمارسون ردود فعل متهورة ولا يعرفون طرقاً إيجابية للتفاعل. فكيف يمكننا كمعلمين مساعدة طلبتنا على التمسك بالأخلاقيات الإيجابية ونبذ السلبية منها؟

كتربويين يمكننا استخدام الفنون بأشكالها المختلفة كالمسرحيات، والموسيقى، والأشعار في تنمية الكثير من القيم الإيجابية لدى الطلبة. فهناك قيم الاجتهاد والنشاط والأمانة واحترام الآخرين. وتساعدنا هذه القيم الإيجابية في طرد ما يمكن أن يحل مكانها من قيم سلبية كالكذب، والعدوان، والغش، التي ينبئ وجودها عن ذكاء عاطفي متدنٍ.

ولاستخدام الفن قدرة تفوق كثيراً أساليب الوعظ في الحث على التمسك بالقيم الإيجابية، وبخاصة عند تعاملنا مع الأطفال. فيمكن للقصص والأناشيد والرسومات والمسرحيات أن تعمل على تنمية القيم الإيجابية. فهناك مثلاً القصص الخرافية المتوارثة مثل: "أكلت يوم أكل الثور الأبيض"، و"إنما تأكل الذئب من الغنم القاصية"، و"ليلى والذئب"، والكثير غيرها من القصص التي كانت وما زالت تستخدم حتى الآن. وقد لمست أثر القصص في حث الأطفال على التمسك بالقيم الإيجابية من حرص ابنتي على عدم الكذب حتى لا يطول أنفها مثل بونيكيو، الذي روت لهم المعلمة قصته في المدرسة،[1] واهتمامها بقضايا البيئة نتيجة تنمية الاهتمام بالبيئة والمحافظة عليها في المدرسة بطرق مختلفة كالأناشيد والمسرحيات.

أما الأناشيد التي تحث على التمسك بالقيم الإيجابية، وعلى قيمة التعلم فكثيرة. ومن هذه الأناشيد ما سمعت ابنتي مريم ترددده وقد تعلمته في الروضة:

■ **هالصرصور . . . . هالصرصور**

هالصرصور هالصرصور — راح للنملة شو مقهور
قلها دخيلك يا جارة — يا نوارة الحارة
أعطيني أربع حبات — 1، 2، 3، 4
قالت له روح يا كسلان — وقت الصيف شو سويت
وين الحب إيللي ليت — ودعها الصرصور وراح
دمعه يجري عالخدين

وهي تحوير لقصة النملة والجندب على شكل أنشودة. وأخرى تحث على التعلم والاطلاع:

■ **أنا صغير**[2]

أنا صغير وبدي أفهم — هادي الدنيا بتمشي كيف
ولساني كيف بيتكلم — ليش المطر مش في الصيف
ليش القمر مدور
كيف الأشجار بتكبر — دور عقلي ع الجواب
لقيت الدنيا بكتاب — مرسومة بألوان الطيف
هادا الكتاب إن حبيتو — بفتح لك كل الأبواب
وإن جبتو مرة وقريتو — بتصير أنت وهو صحاب
بيقولك أوروبا وين — كيف بيصيدو السردين
حتى أنواع البنادمين — بتلاقيها جوا كتاب
اقرأ تلاقي العالم بصغر — وبتسافر أبعد البلاد
وبتركب بالطيارات — وبتدخل أي مدينة
بتلف الكون بساعات — وبترجع بالسفينة

الفنون تعطي معنى للتعلم

ننتقل إلى الدور المهم للفنون في التعبير الذاتي عما نتعلمه، في تذويت المعرفة، والتعبير عنها بطرق مختلفة. وما أن ننجح في التعبير الذاتي عما نتعلمه بطرق مختلفة حتى تصبح المعرفة ملكنا، ونابعة منا، وليست غريبة عنا أو مفروضة علينا.

اعتبرت دوتي هذا العنصر: إيجاد معنى شخصي للتعلم هو الرابع من عناصر الذكاء العاطفي بعد الوعي بالذات وبالآخرين، وقبول الذات والآخرين وتحمل المسؤولية الشخصية. وحثت المعلمين على تزويد تلاميذهم بإستراتيجيات تتضمن ارتباطات ذات معنى، وفرصاً للتأمل، وتغذية راجعة فيما يتعلق بالمحتوى والمشاعر لإكسابهم معرفة عميقة ذات معنى، يسهل انتقالها إلى الذاكرة طويلة الأمد. كما حثت على دمج المتعلمين بالتعلم بنشاط، لاكتشاف المعنى الشخصي في وظائفهم وتعلمهم، ومن خلال التأمل يكتسبون تبصراً بمشاعرهم ويصبحون أكثر رغبة في الوصول إلى نجاح أكاديمي وعاطفي.

ولتحيق تعلم ذي معنى، استدخلت دوتي الفنون وربطتها بأنواع الذكاءات المتعددة. فيمكن للأذكياء لغوياً أو لفظياً إبداع القصص أو المسرحيات، أو الأشعار. ولأصحاب الذكاء المرئي أو الفراغي، التعبير باستخدام الرسومات المختلفة، أو تصميم نشرات تعريفية أو إعلانات. وللأذكياء جسمياً أو حسياً، ممارسة الرقص أو لعب الأدوار أو التمثيلات الإيمائية. وللأذكياء موسيقياً، تلحين الأشعار أو العزف أو الغناء. ولأصحاب الذكاء الشخصي، كتابة المذكرات أو اليوميات أو القصائد أو التعبير بالرسم. ولأصحاب الذكاء الطبيعي، الاستماع للموسيقى. أما الأذكياء اجتماعياً، فيمكنهم تصميم الإعلانات. أما الأذكياء رياضياً، فسيكتشفون التشاكل بين البنى الموسيقية والرياضية، ووجود الأنساق والأنماط في كل من الرياضيات والموسيقى. وقد كتبت الزميلة ليانا جابر مقالة مفصلة حول علاقة الرياضيات بالفنون بعنوان: "فن الرياضيات ورياضيات الفن . . . جسر بين الجمال والتجرد" (جابر، 2007: 71).

ويتوافق الكثير من أشكال الفنون كالتمثيل والرقص مع تأكيد العديد من اختصاصي التعلم على أن الحركة ضرورية في عملية التعلم. فهم يؤكدون على أن التعلم الفعلي يحدث عندما تتم مخاطبة جميع أجزاء الدماغ، بما في ذلك الإثارة والتفعيل للعواطف. إذ تعمل الحركة على تنشيط إفراز بعض كيماويات الدماغ المنشطة للتعلم، وزيادة مستوى طاقته، وتحسين تخزينه للمعلومات واسترجاعها (Jensin, 2000).

وقد لمست أثر الفنون في إعطاء معنى شخصي للتعلم شخصياً أثناء مشاركتي في البحث الإجرائي الذي نفذته المعلمتان كريمة عوض الله وجمانة رسلان في الصفين السابع والثالث الأساسيين. فقد عملت المعلمتان على تنمية الذكاء العاطفي للتلاميذ من خلال المنهاج بتصميم أنشطة لكل عنصر من عناصر الذكاء العاطفي. وقد تبين من خلال تطبيق الطالبات للعنصر الرابع من عناصر الذكاء العاطفي، وهو إيجاد معنى شخصي للتعلم عن طريق تمثل الطالبات للدرس بطرق مختلفة؛ ككتابة مسرحية وتمثيلها، وكتابة أشعار وعرضها في غرفة الصف، مدى الأثر الذي يحدثه إعطاء معنى للتعلم في استدخال المعرفة وإثارة العواطف الشخصية للتعلم وزيادة الرغبة في العمل وفي النشاط الصفي. وقد علقت المعلمة كريمة على تطبيق هذا العنصر بقولها:

"ربما أجمل شيء في تطبيق هذا العنصر من عناصر الذكاء العاطفي هو أنه طبق على الشُعَب الثلاث، وفي كل شعبة تفاجئني الطالبات بأفكار رائعة لشرح الدرس بطريقة غير اعتيادية، وبالطريقة التي تحب بها الطالبات أن يشرح الدرس. فمثلاً، في الشعبة الأولى قامت الطالبات بعمل برنامج تلفزيوني قمن بإعداده، ومن خلاله قامت الطالبات بعرض عناصر الدرس، ولكن بطريقة مختلفة . . . وفي الشعبة الثانية قامت الطالبات بإحضار صور لكائنات مختلفة، وجلبن بيتاً لسلحفاة، كما قمن بإعداد مجسمات للأرض، والاستفادة مما تعلمنه من مادة الفن في السنة الماضية، وبالفعل كان متقناً. بالإضافة إلى قيام طالبتين بعمل حوار بين رائد فضاء وكوكب الأرض تحدثتا فيه عن خصائص الأرض وتراكيبها، وقد شد هذا الحوار بالفعل انتباه الطالبات. كما قامت طالبة بكتابة أغنية عن الأرض وتلحينها، تبين فيها خصائص الأرض وتراكيبها، وهذا الحوار بالفعل شد انتباه الطالبات. أنا أشعر بالفعل بقمة السعادة".

وقالت أيضاً تعقيباً على قيام الطالبات بشرح حركات الأرض ونتائجها:

"تواصل الإبداع عند الطالبات في جميع الشعب. إحداها قامت بتأليف مسرحية فكاهية عن الشمس والأرض ونتائج حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس. . . " .

وأضافت بعد قيام الطالبات بشرح درس القمر:

"ربما لأن القمر جميل جداً، كان الشرح في هذا الدرس جميلاً وممتعاً ومتنوعاً في الشعب الثلاث. شعبتان قامتا بعمل مسرحية، ولكن لكل منهما صبغة مختلفة ونكهة مختلفة، فيما قامت شعبة أخرى بعمل مسرحية ثالثة رائعة، تتضمن برنامجاً تلفزيونياً، كما قامت طالبة بعمل أغنية وتلحينها عن القمر، وإحضار البعض رسوماً ولوحات عن الدرس، وقام البعض بلبس أقنعة عندما تحدث عن الدرس ووضح مفهوم الكسوف والخسوف" .

واختتمت بقولها:

"لا شك في أن هذه الوحدة كانت الأروع في الكتاب، ليس بسبب

محتواها، ولكن بسبب طريقة عرضها . . . " .

وقالت إحدى الطالبات:

"أجمل شيء فعلناه هو محاولة شرح درس العلوم بطريقة مختلفة، وقد نجح كل نشاط بمساعدة وتشجيع المعلمة لنا. وهناك أوراق أحضرتها المعلمة عن حياة العلماء والصعوبات التي واجهوها، وكانت تساعدنا على استخراج العبر التي نأخذها من قصة حياتهم."

يتبين لنا من أقوال المعلمة والطالبة الأثر الإيجابي الذي أحدثه استدخال الفنون بأشكالها المختلفة؛ كالمسرحية، والشعر، والرسم، على استعداد الطالبات للتعلم ومشاركتهن فيه واستمتاعهن بالدرس. كما أن مشاركتهن في التحضير للدرس بطريقتهن الخاصة يعطي للتعلم معنى مختلفاً، ويفسح لهن مساحة أوسع للإبداع. كما نلاحظ الاختيار الواسع للطالبات للفنون عند إفساح المجال لهن في عرض الدروس بطريقتهن الخاصة.

مهى قرعان – مركز القطّان

الهوامش

[1] روضة مدرسة الفرندز للبنات. رام الله، فلسطين.

[2] الأنشودة من تأليف خالد جمعة. وردت في شريط يلا نغني سوى، تلحين وتوزيع: عودة ترجمان، غناء نجاة عبد الهادي. إنتاج مركز المصادر للطفولة المبكرة.

المراجع

- Doty, G. (2001). *Fostering emotional intelligence in K-8 students:* simple strategies and ready to use ativities. California, Corwin Press.
- Goleman, D. (1997). *Emotional intelligence: Why it can matter more than IQ*. New York: Bantam.
- Jensin, E. (2000)," Moving with the brain in mind", *Educational Leadership,* 58(3), 34-37.
- Nowicki, S., & Duke, M. (1989, August). A meausure of nonverbal social processing ability in children between the ages of 6 and 10. Paper presented at the American Psychological Society, New Orleans, LA.
- Sperry, R. (1974). *Lateral specialization in the surgically separated hemispheres* (Neurosciences Third Study Program). Cambridge: MIT Press.
- رضوان، محمد فاضل. (2007). "الفن والإنسان: الأبعاد الاجتماعية والتربوية للقيم الجمالية". **رؤى تربوية**، العدد 22.
- جابر، ليانا. (2007). "فن الرياضيات ورياضيات الفن. . . . جسر بين الجمال والتجريد". **رؤى تربوية**، العدد 23.